

الأوبئة على مرّ العصور

مشاهد وعبر

الدكتور

حسان شمسي باشا

استشاري أمراض القلب

في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة

زميل الكليات الملكية للأطباء في أيرلندا

زميل الكليات الملكية للأطباء في لندن

زميل الكليات الملكية للأطباء في غلاسجو

زميل الكلية الأمريكية لأطباء القلب

[hpasha@hotmail.com](mailto:hpasha@hotmail.com)

فيروس صغير لا يُرى حتى بالمجهر العادي يجتاح العالم لأشهرٍ ومازال.. و رائحة الموت تفوح في كل مكان..إصابات بالملايين.. ووفيات في العالم أجمع فاقت المليون.. كل ذلك بسبب فيروس "كوفيد 19" المعروف بفيروس "كورونا".. حيث بثَّ الخوف والهلع في أرجاء الأرض..فماذا كان في التاريخ من أخبار؟ شكَّلت الأوبئةُ تهديدًا كبيرًا للحضارات الإسلامية في مختلف العصور.. فحصدت أرواح الناس حصداً.. تاركَةً وراءها كوارث مروعة على كافة الأصعدة الإنسانية والاجتماعية..

واحتل "الطاعون" مكانةً مرموقةً في كتب التراث الإسلامي.. حيث حفلت بالحديث عنه مؤلفاتُ الحديث والفقهِ..فضلاً عن فصول الطب.. ومن يتصفح كتب السنة يجد كبار المحدثين كالبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم قد أفردوا في كتبهم أبوابًا تضم ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث في شأن الطاعون.. ومنها ما جاء في البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"، ومنها ما جاء في البخاري أيضًا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: "سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابٌ يُبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ، لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ".

وقد ضربت البلاد الإسلامية طواعين كثيرة أشهرها "طاعون عمواس" في خلافة عمر بن الخطاب عام 17 و18 هـ = 638 و639م.. و"طاعون الكوفة" في عام 49 هـ = 669م.. و"طاعون البصرة" عام 64 هـ = 683م وغيرها كثير.

و من أشهر الأوبئة التي انتشرت في العصور الإسلامية: وباء الطاعون، وداء الكلب، ووباء الكوليرا، والحميات، والخوانيق، والجذري.. وغيرها..إلا أنه جاء في الموسوعة البريطانية أن "الطاعون مصطلح كان يطلق قديمًا على أي مرض واسع الانتشار، مسببًا الموت الجماعي، لكنه الآن محصور في حُمى معدية من نوع خاص تسببه البكتيريا العسوية التي ينقلها برغوث الفئران".

### أوبئة اجتاحت العالم

وهناك عدد من الأوبئة التي اجتاحت العالم عبر التاريخ.. وما فيروس كورونا إلا الحلقة الأخيرة في سلسلة من الأوبئة التي ضربت العالم، وذهب ضحيتها الملايين من البشر، وفيما يلي أبرزها:

### الطاعون الأنطوني:

ففي عام 165 ميلادية تم تسجيل الطاعون الأنطوني.. وقد تسبب هذا الوباء في وفاة ما لا يقل عن ألفي شخص يوميًا حينئذ.. وذكرت بعض الدراسات الحديثة أن الطاعون الأنطوني لم يكن سوى مرض الجذري.. واستمر هذا الوباء في الانتشار إلى سنة 180..

### طاعون جستنيان:

وانتشر في كافة أنحاء الإمبراطورية البيزنطية في آسيا وأفريقيا وأوروبا بين عامي 541 و 542 م، وتكرر حتى 750 م، وأدى إلى وفاة ما يقدر بنحو 25-50 مليون شخص خلال قرنين، وهو ما يعادل 13-26% من سكان العالم. وقد ظهر هذا الوباء أولاً في مصر، وانتقل إلى القسطنطينية حيث كانت الإمبراطورية البيزنطية تحصل على احتياجاتها من الحبوب من مصر..

### الطاعون الأسود ( الموت الأسود):

شهدت أوروبا بين عامي 1347 و 1352 م ما عُرف باسم "الطاعون الأسود" الذي تسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة.

### طاعون لندن العظيم:

شهدت العاصمة البريطانية عامي 1665 و 1666 ما عرف باسم طاعون لندن العظيم والذي وصلها قادماً من هولندا ، و تجاوز عدد ضحاياه الـ 100 ألف شخص، وهو ربع عدد سكان المدينة حينئذ..

### الحمى الصفراء:

انتشر وباء الحمى الصفراء بمنطقة فيلادلفيا الأمريكية عام 1793.. وتسبب في مقتل حوالي خمسة وأربعين ألف شخص.

### الكوليرا:

في عام 1820 فتكت الكوليرا بالكثيرين في جنوب شرق آسيا وبلغ عدد الضحايا أكثر من 100 ألف شخص.

### الأنفلونزا الإسبانية:

في عام 1918 اجتاح وباء الإنفلونزا الإسبانية العالم، وأودى بحياة ما يتراوح بين 40 و 50 مليون شخص.

### الأنفلونزا الآسيوية:

ظهر الوباء في الصين بين عامي 1957 و 1958 ،وانتشر في سنغافورة وهونغ كونغ ثم الولايات المتحدة وكان عدد الضحايا كبيراً.. كان فيروس إنفلونزا أ (H2N2) هو الفيروس المسبب للعدوى.

### انفلونزا الخنازير:

انتشر وباء إنفلونزا الخنازير في عام 2009، وقد اكتشف أولاً في المكسيك في أبريل من ذلك العام، قبل أن ينتشر في العديد من دول العالم.

### أيبولا:

في ديسمبر/كانون أول 2013، ظهر هذا الوباء في غينيا ، وانتشر إلى ليبيريا وسيراليون المجاورتين ، وتوفي حوالي 6 آلاف شخص بسببه.

كوفيد 19:

في شهر ديسمبر 2019 ضرب العالم فيروس كورونا الذي ظهر بمدينة ووهان الصينية، وما زال العالم يرحح تحت أنوائه..

**الطاعون في التاريخ الإسلامي:**

### 1. طاعون عمواس

كان "طاعون عمواس" الذي فتك بقيادة وجنود جيش المسلمين بالشام أول وباء خطير يشهده التاريخ الإسلامي، فقد عمّ بلاد الشام سنة 18هـ... وأدى إلى وفاة عدد لا بأس به من الصحابة، وأعيان التابعين فيها.. و"عمواس" قرية فلسطينية كانت تقع جنوب شرق يافا ، وهدمها اليهود سنة 1967م. يقول الطبري: "دخلت سنة ثمانى عشرة ففيها كان طاعون عمواس، الذي أفنى الناس، فتوفي أبو عبيدة بن الجراح، وهو أمير الناس (قائد الجند)، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وأشرف الناس وعوامهم". واشتد البلاء بأهل الشام حتى أقسم الخليفة عمر رضي الله عنه -كما يقول ابن الأثير في كتابه "الكامل"-: ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس".

وروى الإمام أحمد في مسنده- من حديث شهر بن حوشب عن ربه "زوج أمه" أنه كان قد شهد طاعون عمواس، فكان على قيادة الناس أبو عبيدة بن الجراح فمات بالطاعون، ثم معاذ بن جبل فمات به أيضاً؛ فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فينا خطيباً فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار، فتجلبوا منه في الجبال.. وفي روايات أخرى: فتفرقوا منه في رؤوس الجبال وبطنون الأودية". وبهذا يكون عمرو بن العاص أول من نادى بالعزل "التفرق والتباعد" الجماعي لمواجهة الأوبئة.

### الحجر الصحي

وضع الرسول صلى الله عليه و سلم أسس الحجر الصحي ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: "إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ، فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ فِيهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا". و قال صلى الله عليه و سلم : ( الطاعونُ كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء ، وإنَّ الله جعله رحمةً للمؤمنين ، فليس من أحدٍ يقَعُ الطاعونُ فيمكثُ ، في بلده صابراً محتسباً ، يعلمُ أنه لا يُصيبُهُ إلا ما كتب اللهُ له ، إلا كان له مثلُ أجرِ شهيدٍ). صحيح الجامع:3949.

ولا شك أن الحجر الصحي من أهم وسائل مقاومة انتشار الأمراض الوبائية، و يظهر بجلاء أن الأحاديث

النبوية الشريفة قد حددت مبادئ الحجر الصحي كأوضح ما يكون التحديد، فهي تمنع الناس من الدخول إلى البلد المصاب بالطاعون كما أنها تمنع أهل تلك البلدة من الخروج منها .  
و مفهوم الحجر الصحي مفهوم حديث لم تعرفه البشرية و يتم تنفيذه حتى اليوم. ومنع السليم من الدخول إلى أرض الوباء قد يكون مفهوماً بدون الحاجة إلى معرفة دقيقة بالمرض، و لكن منع سكان البلدة بالمصابة بالوباء من الخروج ، و خاصة منع الأصحاء منهم يبدو عسيراً على الفهم بدون معرفة واسعة بالعلوم الطبية الحديثة.

## 2. طواعين أخرى:

وينقل إلينا المؤرخون أخبار طواعين أخرى في تاريخ المسلمين في القرن الأول الهجري. ومنها «الطاعون الجارف» في البصرة في سنة 69 هجرية، وما عُرف بـ "طاعون الأشراف" في الشام والعراق ، والطاعون الذي أعقب سقوط بغداد بيد جيوش المغول سنة 1258م، والذي انتشر في بلاد المغرب والأندلس وصولاً إلى ما عُرف في الأدبيات الأوربية بـ "الطاعون الأسود" الذي اجتاح العالم القديم في منتصف القرن 14م .  
ففي أهوال سنة 749 هـ حيث الطاعون الذي ضرب بلاد الشام، يذكر ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أن الطاعون بلغ ذروته في كل أنحاء العالم، وتأثرت البلاد الإسلامية بهذا الوباء الذي فاق وصفه، فانتشر الغلاء وكثر الوباء والفساد في مصر والشام، حتى تساقطت الجثث في الشوارع، واضطر الناس إلى عمل التوابيت وتغسيل الموتى من دون أجر، وحفروا المقابر، وكان القبر الواحد يدفن فيه أكثر من 40 جثة".

ويخبرنا ابن إياس في مؤلفه "بدائع الزهور في وقائع الدهور" في أحد مشاهد الغناء بالطاعون أنه: "إذا دخل الدار يُفنيها حتى يعلّقوا مفاتيح الدار في رجل النعش". وهو ما يتفق معه "شيلدون واتس" في "أن القاهرة التي كانت تصنف كثاني أكبر مدينة في العالم بتعداد سكاني يبلغ نصف مليون نسمة، قد فقدت مئتي ألف من سكانها في الفترة من 1347-1349".

ومن القصص الطريفة في تاريخنا ما ذكره ابن الحنبلي الحلبي في كتابه "درّ الحبيب في تاريخ حلب" في ترجمة تلميذه شاه محمد الدكني، إذ قال : إن والده لما دخل الطاعون حلب فرّ بمن معه إلى بعض بساتينها، وكان يخاف الموت خوفاً شديداً، فقدر الله السلامة حينها، لكن لم يلبث أن مات الوالد والولد في طاعون آخر".

## جائحة الحرمين وتعطيل المساجد

وقد ذكرت كتب التاريخ الإسلامي تعطيل المساجد بسبب الأوبئة مراراً، ولم تسلم من ذلك مكة المكرمة نفسها والبيت الحرام؛ فقد ذكره الحافظ ابن حجر -في كتابه "إنباء الغمر بأبناء العمر" ضمن وقائع سنة 827هـ،

فقال: "وفي أوائل هذه السنة وقع بمكة وباء عظيم بحيث مات في كل يوم أربعون نفساً، وحصر من مات في ربيع الأول ألفاً وسبعمئة، ويقال إن إمام المقام "مقام إبراهيم" - وكان أتباع المذهب الشافعي يقيمون عنده صلواتهم - لم يصل معه في تلك الأيام إلا اثنان، وبقية الأئمة "من المذاهب الأخرى" بطلوا الصلاة لعدم من يصلي معهم".

ويروي ابن عذاري المراكشي في كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" - أنه وقع في تونس وباء عظيم سنة 395هـ، فتسبب في شدة عظيمة انكشف فيها المستور، وغلت الأسعار، وعُدم القوت، وهلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج، فلا ترى متصرفاً إلا في علاج أو عيادة مريض أو آخذاً في جهاز ميت، وخلت المساجد بمدينة القيروان".

وفي الأندلس وقع شبيه ذلك فقد ذكر الإمام الذهبي في "تاريخ الإسلام" أحداث سنة 448هـ فقال: "وفيها كان القحط العظيم بالأندلس والوباء، ومات الخلق بإشبيلية، بحيث إن المساجد بقيت مغلقة ما لها من يصلي بها". وذكر أيضاً في "سير أعلام النبلاء" أنه في هذه السنة كان القحط عظيماً بالأندلس، وما عهد قحط ولا وباء مثله بقرطبة، حتى بقيت المساجد مغلقة بلا مُصَلِّ، وسُمي عام الجوع الكبير".

ويضيف الإمام الذهبي - وكأنه يصف لنا أجواء عالماً في وقت نزوة كوونا وقد خيم عليه الرعب وطَبَّقَ حظر التجوال في معظم أنحاء الأرض - "والناس يمرون في هذه البلاد فلا يرون إلا أسواقاً فارغة، وطرقات خالية، وأبواباً مغلقة، وطويت التجارات، وأمور الدنيا، وليس للناس شغل في الليل والنهار إلا غسل الأموات والتجهيز والدفن، وخلت أكثر المساجد من الجماعات".

ولم يكن وباء الطاعون قاصراً على الشرق الإسلامي، فالحقيقة التاريخية أنه جاء وافداً من أوروبا الغربية، إذ يروي "واتس" كيف انتشر الوباء من موانئ البحر الأسود في العام 1347م عندما اعتلت الفئران والبراغيث سفناً متجهة إلى جنوا الإيطالية، -المدينة التي قادت مع شقيقتها البندقية "فينيسيا" - حركة تجارة مزدهرة في حوض المتوسط، وسرعان ما وصلت السفن الجنوبية إلى سواحل مصر ومدنها، ليعم "الموت الأسود" جنوبي وشمالي المتوسط وأوروبا الغربية".

ومن العجيب ما أورده الطبيب المسلم أبو بكر الرازي من وصف دقيق للطاعون وأعراض الإصابة به، كما يشير إلى أن الفقيه والمؤرخ الأندلسي "لسان الدين ابن الخطيب" المتوفى في العام 1374م قد حدد سبل الوقاية منه بوصفه مرضاً معدياً "ينتقل من الملابس والأكواب والماء وحتى قرط المتوفى".

و لقد شهد الرحالة ابن بطوطة سنة 749هـ "الطاعون الأعظم" في دمشق، و حكى عنه في وصف "مسجد الأقدام" في دمشق، وكيف أن الجميع قد خرجوا باكين متضرعين إلى الله، كباراً وصغاراً، بل إنهم خرجوا على أقدامهم وشاركهم الأمراء وهم حفاة.

ولا يكاد وباء أو طاعون أصيبت به الأمة، يخلو من مثل ذلك المشهد الإيماني الذي يكشف عن أهمية التقرب إلى الله، والدعاء إليه في تلك الأوقات العصبية.

### وأخيراً

من واجبنا كمسلمين أن لا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة ، وأن نأخذ بالأسباب، ونلتزم بما يحفظنا من الأمراض، مما تأمر به السلطات الصحية و ولاية الأمور، من سبل الوقاية من هذا الوباء، وذلك بتكرار غسل اليدين، ولبس الكمامات ، والتباعد الإجتماعي، وكل ما يجنب انتقال الفيروس للأصحاء.. إضافة إلى أخذ اللقاح متى أجازته السلطات الصحية المختصة.

ولا شك أن في تعاليم ديننا الحنيف ما يحث على النظافة والطهارة والوقاية من الأمراض.. ثم إذا وقع المرض نصبر ونحتسب، ونلتمس الدواء، ونسلم بالمقدور.. وملتجئ إلى الله على الدوام أن يدفع هذا الوباء عن البشرية جمعاء..

### المراجع:

1. د. محمود الحاج قاسم: البيئة والأوبئة في التراث الطبي العربي الإسلامي ،دار ماشكي للطباعة والنشر ،الموصل، 2020.
2. جلال الدين السيوطي: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، شرح وتحقيق ودراسة د.محمد علي البار.دار القلم، دمشق
3. أ.أحمد العدوي: الطاعون في العصر الأموي :صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الأموية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.
4. د .عبدالرحمن فراج: الأوبئة والطواعين عبر التاريخ، مجلة الحرس الوطني 15.3.2020
5. أ.عبدالله بن عمار: كيف تعامل المسلمون والعرب مع الأوبئة؟ موقع الميادين.
6. د. محمد علي البار: العدوى بين الطب وأحاديث المصطفى ،دار الفتح للنشر.
7. د. راغب السرجاني .الطواعين والأوبئة في التاريخ الإسلامي .موقع قصة الإسلام.
8. أ.محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس،1992.
9. أ.عمر عبدالرازق و أ. سارة فياض : فيروس كورونا: الأوبئة في كتابات المؤرخين وخيالات المبدعين .